

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث عائشة -رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّى تَنْفَطِرَ قَدْمَاهُ وَحَدِيثٌ "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرَ أَحْبَأَ اللَّيْلَ"

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكان آخر ما تحدثنا عنه هو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ))^(١)، حيث إن الكثرين تفتاك بهم هاتان النعمتان.

إن الشباب والفراغ والجدة** مفسدة للمرء أي مفسدة

وهذا حديث عائشة -رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّى تَنْفَطِرَ قَدْمَاهُ، فقلت له: لَمْ تَصْنَعْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرَ؟ قَالَ: ((أَفَلَا أَحُبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا))^(٢)، متفق عليه.

ونحوه في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة -رضي الله تعالى عنه-^(٣).

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان أكمل الأمة عبودية لربه ومولاه -جل جلاله-، ومضت الأحاديث في أن من تقرب إلى الله شبراً تقرب الله -عز وجل- منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب الله منه باعاً، وكذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((اغتنم خمساً قبل خمس...))^(٤).

وما أشبه هذا من النصوص التي تحت على المزيد من العمل الصالح، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان أكمل الأمة استجابة لربه، وإقبالاً على عبادته، ومحبة له، وما إلى ذلك من المعاني، فهنا: كان يقوم من الليل حتى تنفتر قدماه، أي: يقوم قياماً طويلاً حتى تتشقق قدماه، وجاء في بعض الروايات حتى تتورم قدماه^(٥).

١- أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب: لا عيش إلا عيش الآخرة (٨٨/٨)، رقم: (٦٤١٢).

٢- أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما} [الفتح: ٢] (١٣٥/٦)، رقم: (٤٨٣٧)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٤/٢١٧٢)، رقم: (٢٨٢٠).

٣- أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب: قيام النبي -صلى الله عليه وسلم- الليل حتى ترم قدماه (٥٠/٢)، رقم: (١١٣٠)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٤/٢١٧١)، رقم: (٢٨١٩).

٤- أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب المواتظ (١٠/٤٠٠)، رقم: (١١٨٣٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق (٤/٣٤١)، رقم: (٧٨٤٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/٤٧٦)، رقم: (٩٧٦٧).

٥- الكني والأسماء للدولابي (٢/٦٢٢)، رقم: (١١٤)، وأخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب: قيام النبي -صلى الله عليه وسلم- الليل حتى ترم قدماه (٢/٥٠)، رقم: (١١٣٠)، بلفظ: إنَّ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَقُولَ لِيَصْلِي حَتَّى تَرِمَ قَدْمَاهُ -أو ساقاه- فَيَقُولُ لَهُ فِي قَوْلٍ: ((أَفَلَا أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا)).

وليس بينهما منافاة؛ لأنها إذا تورمت من طول القيام فإنها تتشقق، فعائشة -رضي الله عنها- تسأله، تقول له: كيف تفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، كما قال الله عز وجل:- **{ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}** [الفتح:٢]، فقال: ((ألا أحب أن أكون عبداً شكوراً)).

والشكور هو كثير الشكران، وذلك -أعني الشكور- هو ظهور أثر النعمة على المنعم عليه، والله -عز وجل- يقول: {اعملوا آلَ دَاءُودَ شُكْرًا وَقَتِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣].

فالملائكة أن الإنسان يتبع الله -سبحانه وتعالى- ليس فقط من أجل تكثير الذنوب والسيئات، بل من عرف الله معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته عظمه وانجذب قلبه إلى عبادته، فأسرته تلك المعاني والصفات الكاملة لله -سبحانه وتعالى-، فلا يملك إلا أن ينقاد له، وأن يتبع له، وأن يعظمه حق التعظيم؛ لأنَّه العظيم الأعظم، كذلك الإنسان يتبع الله -سبحانه وتعالى-، ويكثر من الأعمال الطيبة الصالحة من أجل أن يُكفر الله -عز وجل- عنه ذنبه، ويُمحو تقصيره وزلاته، وللهذا قال الله -عز وجل-: **(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِيَ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنْ جَلِيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِّذَاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)** [هود: ١١٥-١١٤].

فالحاصل أن الإنسان يحتاج إلى صبر على الطاعة؛ لأن النفس تتغلط على صاحبها، فالله -عز وجل- أمر ذلك الرجل الذي قارف مع تلك المرأة ما لا يليق مما لا يوجب الحد، لما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- ونثم على عمله، قال الله: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ النَّهَارِ وَرُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ}** [هود: ١١٤].^(٦)

فإن الإنسان يعمل الأعمال الطيبة الصالحة من أجل أن يكفر عن الذنوب أيضاً، ولهذا عمر -رضي الله عنه- مثلاً لما جادل النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلح الحديبية، ثم ندم بعد ذلك ذكر أنه لم يزل يعمل أعمالاً لها.

وكذلك أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة بدر: مَنْ لَقِيَ الْعَبَاسَ فَلَا يُقْتَلُهُ، لأنَّه خرج مكرهاً، فقال أبو حذيفة: نقتل أبناءنا وآباءنا وإخواننا ونترك العباس؟، والله لئن لقيته لأضربنه بالسيف، فندم بعد ذلك، فكان يعمل أعمالاً كثيرة، حتى إنَّه رأى أنَّ ذلك الذي صدر منه لا يكفره إلا القتل في سبيل الله، فقتل شهيداً -رضي الله عنه-، هو ومولاه سالم كما هو معروف^(٧).

٦- عن ابن مسعود -رضي الله عنه-: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرْفِي النَّهَارَ وَزَلْفًا مِنَ الظَّلَالِ إِنَّ الْحُسْنَاتِ يَذْهَبُنَّ السَّيْئَاتِ ذَلِكَ ذَكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ} [هود: ٤١]، قال الرجل: ألم هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتى.

آخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين} [هود: ١١٤] [٧٥/٦)، رقم: (٤٦٨٧).

^٧ - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢٤٧/٣)، رقم: (٤٩٨٨).

فالقصد أن الإنسان يعمل أحياناً لتكفير السيئات، ويعمل أيضاً شكرًا لله -سبحانه وتعالى- على ما أفاض عليه من النعم الظاهرة والباطنة، نعمة عافية البدن، ونعمة المال، ونعمة المعافاة من البليا والمحن والفتنة، وما أشبه ذلك، ونعمة الإفضال عليه بالإسلام، وهدايته إلى الصراط المستقيم، فكل عبادة تصدر من الإنسان هي نعمة تستوجب الشكر، فنحن حينما نوفق إلى بلوغ رمضان، أو إلى صيام رمضان هذه نعمة تحتاج إلى شكر، وإذا صلينا التراويح هذه نعمة تحتاج إلى شكر، وهذا في أحوالنا كلها، فيكون الإنسان دائمًا يتقرب إلى الله -عز وجل- بألوان القربات.

فهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك يقوم الليل حتى تفطر قدماء، فكيف بالضعفاء؟ كيف بأصحاب الذنوب العظيمة الكثيرة المتكررة وليس عندهم، أو عندنا عهد من الله -عز وجل- بأن يغفر لنا هذه الذنوب؟

فنحن أحري أن نقوم بالأعمال الصالحة، وأن نكثر من نوافل العبادات ليكون ذلك جبراً لما نقص، أو لما يقع من النقص في الفرائض، ولهذا جاء من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله^(٨).

معناه: أنه لا يقرب أهله في تلك الليالي، والمقصود بها العشر الأواخر من رمضان، فهذا يعني: التشمير للعبادة، والتفرغ لها، والانقطاع عن المألفات التي كان يفعلها، حتى نوم الليل، فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينام سائر العام، ويقوم بعض الليل، وإذا جاءت العشر أحيا الليل كله من أوله إلى آخره بين صلاة وذكر وقراءة، وما أشبه ذلك.

أسأل الله -عز وجل- أن يعيننا وإياكم على أنفسنا، وصلى الله على نبينا محمد، وآلـه وصحبه.

^٨- أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٤٧/٣)، رقم: (٢٠٢٤)، ومسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (٨٣٢/٢)، رقم: (١١٧٤).